الانتحار

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

حدّث المسيّب بن رافع الكوفيّ قال : بينا أنا يوماً في مسجد الكوفة ، ومعي سعيدُ بنُ عثمان ، ومجاهد ، وداود الأزديّ ، وجماعةٌ — أقبلَ فتًى فجلس قريباً منا ، وكان تلقاءَ وجهي ؛ لا أُمدّ نظري إلا انطلقَ في سمْتِه ووقف عليه ؛ وكنا نتحدّثُ ، فرأيتُه يتسمّعُ إلى حديثنا ؛ فلما تكلّم سعيدٌ ، وكان خافتَ الصوت من علّةٍ به ، وكنا نسمّيه النملةَ الصّخابة — رأيت الفتى يتزحّفُ قليلاً قليلا حتى صار بحيث يقعُ في سَماعه حَسيسُ نملتِنا

وكان سعيد يقول : اجتزْتُ أنا والشعبيّ[1] أمس بعمرانَ الخيّاط ، فمازَحه الشيخُ فقال له : عندنا حِبٌّ[2] مكسورٌ ، تخيطُه ؟ قال : نعم ، إن كان عندك خيطٌ من ريح ! فقلتُ أنا : فاذهبْ جِئْنا بالمِغزَل الذي يغزِلُ الهواء لنصنعَ لك الخيط

قال مجاهد : هذا ليس بشيءٍ في نَوادرِ شيخِنا وما يتّفقُ له ؛ أخبرَني أن رجلاً جاءه في مسئلة ، فدخل عليه البيتَ وهو جالسٌ مع امرأته ؛ فقال الرجل : أيُّكما الشعبيّ . . . ؟ فأومأ الشيخ إلى امرأته وقال : هذه . . . !

قال المُسيّب : وضحكنا جميعاً ، وأخذ نظرى الغلامَ فإذا هو ناكسٌ حزناً وهماً ، وكأنه لا يتسمّع إلينا ليسمع ، بل ليشغلَ نفسَه عن شيءٍ فيها ، فتتوزّعَ خواطرُه ، فيتبدّد اجتماعُها على همّه ، بصوتٍ من هنا وصوتٍ من هنا ، كما يفعل المحزونُ في مغالبة الحزن ومُدافعته ، يَشغَلُ عنه بصرَه وقلبَه وسمعَه جميعاً ، فيكون الحزنُ فيه وكأنه بعيدٌ منه

فقلت في نفسي : أمرٌ أماتَ الضحكَ في هذا الفتى وكسَر حِدّتَه وشبابَه . ثم تحوّلتُ إليه وقلت : رأيتُك يابنيّ مقبلاً علينا كالمنصرِف عنا ؛ فما بالكَ لم تضحك وقد ضحكنا جميعاً ؟

قال : إليك عني ياهذا . فأين مني الضّحكُ وأنا على شفير القبر ، ودوح التراب ملءُ عينيّ في كل ما أرى . وكأنّ حفرتي ابتلعت الدنيا التي أنا فيها لتأخذني فيها ، وأنا الساعةَ ميتٌ حيٌّ ؛ رجلٌ في الدنيا ورجلٌ في الآخرة !

قلت : فأعلمني مابك يابني ؛ فلقد احتسبْتُ ولداً لي كان في مثل سِنّك وشبابك ولم أُرزق غيرَه ، فقلبي بعده مريضٌ به ، يتوسّمُه مُفرّقاً في لِداتِه مُتوهّماً أن وجوههم تجمعُه تلامحه ؛ فأنا من ذلك أحبّهم جميعاً وأطيل النظرَ إليهم والتأمّلَ في وجوههم ، ولستُ أرى أحداً منهم إلا كان له ولقلبي حديث ! فإن رأيتُه حزيناً مثلك تقطّعتُ له من إشفاق ورحمة ، وطالعني فتاي في مثلِ همّه وحزنه وانكسارِه ؛ فيعود قلبي كالعين التي غشّاها الدمع ، تحمل أثرَ الحزن ومعناه وسِرّه ، فبُثّني ما تجد يابنيّ ، فلعل لي سبباً إلى كشف ضرّك أو إسعافك بحاجتك ؛ ولعلك تكون قد حزنتَ من أمرٍ قريبِ المُتناوَل هيّنِ المحاولة ، لم يجعله عندك كبيراً أنه كبير ، ولكنْ أنك أنت صغير

قال الفتى : مهلاً ياعمّ ، فإن ما نزل بنا مما تنقطع عنده الحيلة ولا تَنقاد فيه الوسائل ، ولا علاجَ منه بالموت يأخذنا ويأخذه

قلتُ : يابنيّ ، هذه كلمة ما أحسب أحداً يقولها إلا من أُخِذ للقتل بجنايته ولم يَعفُ أهل الدم ، فهل جنيتَ أو جنى أبوك على أحد ؟

قال : إن الأمر قريبٌ من قريب ، فإني تركتُ أبي الساعة مُجمِعاً على إزهاق نفسه ، وقد أغلقَ عليه الدارَ واستوثقَ من الباب !

قال المسيّب : فكأنما لدغتني حيةٌ بهذه الكلمة ، وأكبرتُ أن يكون رجلٌ مسلمٌ يقتلُ نفسَه ؛ فتناهضْتُ ، ولكنّ الغلام أمسكَ بي وقال : إنه لا يزال حياً وسيقتل نفسَه متى أظلم الليلُ وهدأت الرِّجل

قلت : الحمد لله ، إن في النور عقلاً ، ولكنْ ما الذي صار به إلى ماقلت ، وكيف تركته لقَدَرِه وجئت ؟

قال الفتى : إنه قال لي : ياولدي ، ليس لك أبٌ بعدي ؛ فإن

---

(١) هو الامام العظيم (عامر بن شراحيل الشعبي) توفى سنة ١٠٣ للهجرة أو حولها ، عن بضع وثمانين سنة ، وكان في عصره أحد العلماء الأربعة في الاسلام : سعيد بن المسيب في المدينة (ذكرناه في قصة زواج) ، والحسن البصري في البصرة (ذكرناه في قصة : بنته الصغيرة) ومكحول في الشام ، والشعبي هذا في الكوفة . وكان يشبه في زمانه ابن عباس في زمانه

(٢) الحب بكسر الحاء هو الزير ، يستقطر الماء من أسفله فيخرج صافياً ، ويقول لرشحه : قطر حب

أردتَ اللحاقَ بي فارجع مع الليل لنُسْلِمَ أنفسَنا ، وإن آثرتَ الحياةَ فارجعْ مع الصبح لتُسلِمَني إلى غاسلي !

قلت : أمآمنٌ أنت ألا يكونَ أبوك قد أخرجك عنه لأن عينَيك تُمْسكُ يده وتردُّه عما يَهُمّ به ، حتى إذا خلا وجهُه منك أزهق نفسَه ؟

قال : لم أدَعْه حتى أقسمَ أن يحيا إلى الليل ، وحتى أقسمتُ أن أرجع لأموتَ معه ؛ فإن لم تُمسكه عينُه أمسكه انتظارى ، وقد فرغَت الحياةُ منا فلم يبقَ إلا أن نفرغَ منها ؛ ومن كان فيما كنا فيه ثم انحدر إلى ما انحدرنا إليه ، لم يرَ الناس من نفسه ضعةً ولا استكانة ؛ وإنما خرجتُ لأسألَ هذا الامام (الشعبيّ) وجهاً من الرأى فيمن يقتل نفسه إذا ضاقت عليه الدنيا ، ونزلتْ به النازلاتُ ، وتعذَّر القوت ، واشتدَّ الضُرُّ ، وتدلَّت به المسكنةُ إلى حضيضها ، وألجئ إلى أحوالٍ دقَّتْه دقَّ الرَّحى لما تدور عليه ، ولم يَبقَ له إلا رأيٌ واحد فى الدنيا : هو أنه مكذوبٌ مزوَّرٌ على الدنيا .

قلت : يابنيّ . فانى أراك أديباً ؛ فمن أبوك ؟

قال : هو فلان التاجر ، ظهر ظهورَ القمر ومُحِق محاقَه ، وهو اليوم فى أحلَكِ الليالى وأشدِّها انطماسا ، جهَدَه الفقر ، ويا ليته كان الفقر وحدَه ، بل انتكهتْه العلَل ، وليتها لم تكن إلا العِلَلَ مع الفقر ، بل أخذ الموتُ امرأتَه فماتت هماً به وبى ، ولم يكن له غيرى وغيرُها ، وكان كلٌّ من ثلاثتنا يحيا للاثنين الآخرين ، فهذا ما كان يجعل كلاً منا لا يَفرَغُ إلا امتلأ ، ولما ذهبَت الأمُّ ذهبت الحقيقةُ التى كنا نقاتل الأيامَ عنها ؛ وكانت هى وحدها تُرينا الحياةَ بمعناها إن جاءتنا الحياة فارغة من المعنى ، وكنا من أجلها نفهم الأيام على أنها مجاهَدةُ البقاء ؛ أما الآن فالحياةُ عندنا قَتْلُ الحياة .. !

قلت : يابنيّ ، فانك والله لحكيم ، وإنى لأنفَسُ بك على الموت ؛ فكيف ردّتك حياة أمّك عن قتل نفسك ولا تردُّك حياةُ أبيك ؟

قال : لو بقى أبى حياً لبقيت ، ولكن الدهر قد انتزع منه آخرَ ما كان يملك من أسباب القوّة ، حين أخذَ القلبَ الشفيق الذى كان يجعله يتمسك إذا فكَّر فى الموت ؛ فهو الآن كالذى يحارب عن نفسه تلقاء عدوٍّ لا يرحمه ؛ إن عجز عن عدوّه قَتَلَ نفسه ليستريح من تنكيل العدوِّ به

* * *

قال المسيِّب بن رافع : وأدركتُ أن الفتى يُريد من سؤال الشيخ نَحِلةً يطمئنُّ اليها أن يموتَ مسلماً إذا قتل نفسَه كالمضطرِّ أو المُكرَه ؛ فأشفقتُ أن أكسِرَ نفسَه إذا أنا حدّثته أو أفتيتُه ؛ وقلت : هذا مريضٌ يحتاج العلاجَ لا الفُتْيا ؛ وكان إمامُنا (الشعبيُّ) حكيما لحناً فطناً سفَر بين أمير المؤمنين (عبد الملك) وعاهلِ الروم ، فحسدنا العاهلُ أن يكون فينا مثلُه . وقلتُ : لعل الله يُحدث به أمراً . فأخذتُ بيد الفتى اليه ، ومشيتُ أكلّمه وأرُدّه عن نفسه . وقلت له : أما تدرى أنك حين فرغتَ من سرور الحياة فرغتَ من غرورها أيضاً ، وأن الزاهد المنقطعَ فى صَومَعَة الجبَل ينظر من صومعته إلى الدنيا – ليس بأحكمَ ولا أبصرَ ممن ينظر من آلامه إلى الدنيا ؟

يابنيّ ، إن الزاهد يحسب أنه قد فرّ من الرذائل إلى فضائله ، ولكن فراره من مجاهَدة الرذيلة هو فى نفسه رذيلةٌ لكل فضائله . وماذا تكون العفّةُ والأمانةُ والصدقُ والوفاء والبرُّ والأحسان وغيرها ، إذا كانت فيمن انقطع فى صحراءَ أو على رأس جبل ؛ أيزعم أحدٌ أن الصدق فضيلةٌ فى إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار ؟ وايمُ الله إن الخالىَ من مجاهَدة الرذائل جميعاً ، لهُو الخالى من الفضائل جميعاً !

يابنيّ ، إن من الناس من يختارهم الله فيكونون قِمَح هذه الانسانيـة : يَنبُتون ويُحصَدون ويُطحَنون ويعجنون ويُخبَزون ، ليكونوا غذاءَ الانسانية فى بعض فضائلها . وما أراك أنت وأباك إلا من المختارين كأن فى أعراقكما دم نبيٍّ يقتَل أو يُطلَب !

قال المسيِّب : وانتهينا إلى دار الشعبيّ ، فطرقتُ الباب ، وجاء الشيخ يفتح لنا ، ، وسلّمنا وسلّم ، ثم بَدَرتُ فقلت : يا أبا عمرو ، إن أبا هذا كان من حاله كيت وكيت ، فترادفَتْ عليه المصائبُ وتوالت النكباتُ وتواترت الأسقام . . . ثم اقتصصتُ ما قال ابنُه حرفاً حرفاً ، ثم قلت : وإنه الآن

موشك أن يزهق نفسه وسيتبعه ابنه هذا ؛ وقد (هداه الله اليك) فجاء يسألك : أيموت مسلماً من ألجئ وأكربه واضطر واستضاق واختل ، فتحسى سماً فهلك ، أو توجأ بحديدة فقضى ، أو ذبح نفسه بنصل تخفت ، أو حز في يده بسكين فما رقأ دمه حتى مات ، أو اختنق في حبل ففاضت نفسه ، أو تردى من شاهق فطاح . . . ؟

وأدرك الشيخ معنى قولي : (هداه الله إليك) ، ومعنى ما أكثرت من الألفاظ المترادفة على القتل وما استقصيت من وجوهه ؛ فعلم أني لم أسأله الفتيا والنص ، ولكني سألته الحكمة والسياسة ؛ فقال : هذا والله رجل كريم ، أخذته الأنفة وعزة النفس ، وما أنا الساعة بمنزل عن همه ، فنذهب نكلمه والله المستعان

ومشينا ثلاثتنا ، فلما شارفنا الدار قال الفتى : إنه لايفتح لي إذا رآ كما ، وربما استفز بنفسه فأزهقها ، وسأتسور الحائط وأتدلى ثم أفتح لكما فتدخلان وأنا عنده

* * *

ودخلنا ، فاذا رجل كالمريض من غير مرض ، خوار مسلوب القوة ، انزعج قلبه إلى الموت ومابه جرأة ، وإلى الحياة وما به قوة ؛ وصغر اليه نفسه أنها أصبحت في معاملة الناس كالدرهم الزائف لايقبله أحد ، وثار عليه داء الحزن فأضناه وتركه روحا تتقمقم في جلدها ، فهي تهم في لحظة أن تثب وتندلق

وسلم الشيخ وأقبل بوجهه على الرجل ، ثم قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »

فقطع عليه الرجل وقال كالمحنق : أيها الشيخ ، قد صبرنا حتى جاء مالا صبر عليه ؛ وقد خلونا من معاني الكلام كله ، فما نقدر عليها إلا لفظة واحدة نملك معناها ، هي أن ننتهي !

ومد الشيخ عينه فرأى كوة مسدودة في الجدار ، فقال لي : افتح هذه ودع الهواء يتكلم معنا كلامه . فقمت اليها فعالجتها حتى فتحتها ، ونفذ منها روح الدنيا ، وقال الشيخ للرجل : أصغ إلي ، فاذا أنا فرغت من الكلام فشأنك بنفسك : أعلمت أن رجلا من المسلمين قد مرض ، فأعضل مرضه فأثبته على سريره ثلاثين سنة لايتحرك ، وطوى فيه الرجل الذي كان حياً ونشر منه الرجل الذي سيكون ميتاً ، فبقي لاحياً ولا ميتاً ثلاثين سنة . . . . ؟

قال الرجل : وفي الدنيا من يعيش على هذه الحال ثلاثين سنة ؟

قال الشيخ : صحح الكلام واسأل : أيصبر على هذه الحال ثلاثين سنة ولايقول : (جاء مالا صبر عليه) ! وأي شيء لاصبر عليه عند الرجل المؤمن الذي يعلم أن البلاء مال غير أنه لايوضع في الكيس بل في الجسم ؟

أفتدري من كان الصابر ثلاثين سنة على بلاء الحياة والموت مجتمعين في عظام ممددة على سريرها ؟ إنه إمامنا (عمران ابن حصين الخزاعي) (1) الذي أرسله عمر بن الخطاب يفقه أهل البصرة ، وتولى قضاءها وكان الحسن البصري يحلف بالله ماقدمها خير لهم من عمران بن حصين . ولقد دخلت عليه أنا وأخوه (العلاء) فرأيناه مثبتاً على سرير الجريد كأنما شد بالحبال وما شد إلا بانتهاك عصبه وذوبان لحمه ووهن عظامه ؛ فبكى أخوه ، فقال : لم تبكي ؟ قال : لأني أراك على هذه الحال العظيمة ! قال لا تبك ؛ فان أحبه إلى الله تعالى أحبه إلي . ثم قال : إن هذه الأرض تحمل الجبال فلا يشعر موضع منها بالجبل القائم عليه ، إذ كان تماسك الأرض كلها قد جعل لكل موضع منها قوة الجميع ، ولولا هذا لدك الجبل موضعه وغار به ؛ وكذلك يحمل المؤمن مثل الجبال من البلاء على أعضائه لاينكسر لها ولايتهدم ؛ إذ كانت قوة روحه قوة في كل موضع ، فالبلاء محمول على همة الروح لاعلى الجسم ، وهذا معنى الخبر : « إن المؤمن بكل خير على كل حال ، إن روحه لتنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل ! »

ثم قال : ولكن ذاك هو المؤمن ، فمن آمن بالله فكأنما قال له : « امتحني » وكيف تراك إذا كنت بطلاً من الأبطال مع قائد الجيش ، أما تفرض عليك شجاعتك أن تقول للقائد : « امتحني وارم بي حيث شئت ! » وإذا رمى بك فرجعت مشخناً بالجراح ونالك البتر والتشويه — أتراها أوصافاً لمصائبك ، أم ثناء على شجاعتك ؟

(1) توفي سنة ٥٣ من الهجرة

ثم قال : إذا لم يكن الايمانُ بالله اطمئناناً في النفس على زلازلها وكوارثها — لم يكن إيماناً ، بل هو دعوى بالفكر أو باللسان لا يَعْدُوها ، كدعوى الجبان أنه بطل ، حتى إذا فَجَأَه الرَّوْعُ أحدثَ في ثيابه من الخوف . . . ! ومن ثم كان قَتْلُ المؤمن نفسَه لبلاءٍ أو مرض أو غيرها كفراً بالله وتكذيباً لايمانه ، وكان عمله هذا صورةً أخرى من طيش الجبان الذي أحدث في ثيابه !

والايمانُ الصحيحُ هو بشاشةُ الروح ، وإعطاء الله الرِّضى من القلب ، ثقةً بوعده ورجاءً لما عنده ، ومن هذين يكون الاطمئنان . وبالبشاشة والرضى والثقة والرجاء ، يصبح الأيمانُ عقلاً ثانياً مع العقل . فاذا ابْتُلِيَ المؤمن بما يذهب معه الصبرُ ويطيشُ له العقل ، وصار من أمره في مثل الجنون — بَرَزَ في هذه الحالة عقله الرُّوحاني وتولى سياسة جسمه حتى يفيق العقل الأول . ويجيء الخوف من عذاب الله ونقمته في الآخرة ، فيغمر به خوف النفس من الفقر أو المرض أو غيرها ، فيقتتل أقواهما الأضعف ، ويخرج الأعزُّ منهما الأذلَّ

فالاطمئنان بالايمان هو قتل الخوف الدُّنيويّ بالتسليم والرِّضى ، أو تحويلُه عن معناه بجعل البلاء ثواباً وحسنات ، أو تجريده من أوهامه باعتبار الحياة سائرةً بكل ما فيها إلى الموت ، وهو بهذا عقلٌ روحانيٌّ له شأنٌ عظيم في تصريف الدنيا ، يترك النفس راضية مَرْضيّة ، تقول لمصائبها وهي مطمئنة : نعم ، وتقول لشهواتها وهي مطمئنة : لا

وما الانسان في هذا الكون ، وما خيره وشرُّه ، وما سخطُه ورضاه ؟ إنْ كلُّ ذلك إلا كما ترى قبضةً من التراب تتكبّر وقد نسيت أنه سيأتي من يكنسها . . . . !

* * *

قال الشيخ : وانظر ، أما تُبْتَلى الشجرةُ الخضراءُ في بعض أوقاتها بمثل ما يُبْتَلى به الانسان ، غير أن لها عقلاً روحانياً مستقرًّا في داخلها يُمسك الحياةَ عليها ويَتربّص حالا غير الحال ؛ ومهما يكن من أمر ظاهرها وبلائه فالسعادة كلها في داخلها ، ولها دائماً ربيع على قدرها حتى في قُرِّ الشتاء

فالعقلُ الروحانيّ الآتي من الايمان ، لا عمل له إلا أن ينشئ للنفس غريزة متصرِّفةً في كل غرائزها ، تُكمِّل شيئاً وتنقص من شيء ، وتُوَجِّه إلى ناحية وتصرفُ عن ناحية ؛ وبهذه الغريزة تسمو الروح فتكون أكبر من مصائبها وأكبر من لذّاتها جميعاً

وتلك الغريزة هي نفسها معنى الرضى بالقدَر خيره وشرّه ، وهي تأتي بالتأويل لكل هموم الدنيا ، فتضع في النكبات معانيَ شريفةً تنزع منها شرّها وأذاها للنفس ، وليست المصيبةُ شيئاً لولا تأذِّي النفس بها . وإذا وقع التأويل في معاني النكبات أصبحت تعمل عملَ الفضائل ، وتغيّرتْ طبيعتُها ، فيعود الفقر باباً من الزهد ، والمرضُ نوعاً من الجهاد ، والخيبة طريقاً من الصبر ، والحزن وجهاً من الرجاء ، وهلمّ جرّاً

والنفس وحدها كنزٌ عظيم ، وفيها وحدها الفرح والابتهاج لا في غيرها ، وما لذّات الدنيا إلا وسائل لاثارة هذا الفرح وهذا الابتهاج ، فان وجدا مع الفقر بطلتْ عزةُ المال وأصبح حجراً من الحجر ، والبلبل يتغرّد بحنجرته الصغيرة مالا تغنّي فيه آلاتُ التَّطريب كلها . وفي النفس حياةُ ما حولها ، فاذا قَويتْ هذه النفس أذلت الدنيا ، وإذا ضعفتْ أذلتها الدنيا !

* * *

قال المسيب : ثم سكت الشيخ قليلاً ، وكنت أرى الرجل كأنما يغتسل بكلامه ، وقد أشرق وجهه وتَنضر وانقلب إلى روحه التي كان منصرفاً عنها ، فعادت مصائبه تضغطُ روحاً لينةً كما تضغط اليد على الماء ، وأيقن أن النكبةَ كلها هي أن ينظر الانسان إلى الحياة بعين شهواته فيُنكب أول ما ينكب في صبره ويقينه

ثم قال الشيخ ، ولقد رأيت بعينيْ رأسي معجزةَ (العقل الروحانيّ) وكيف يصنع : رأيت عروة بن الزبير[1] وهو شيخ كبير — عند الوليد بن عبد الملك ، وقد وقعت في رِجْله الأَكِلَة ، فأشاروا عليه بقطعها لا تُفسد جسدَه كلَّه ، فدُعيَ له من يقطعها ، فلما جاء قال له نسقيك الخمر حتى لاتجدَ لها ألماً . فقال عروة : لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية ! قال : فنسقيك المُرْقِد . فقال عروة : ما أُحبّ أن أُسلَب عضواً من

(١) توفي سنة ٩٣ للهجرة

أعضائى وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه

ثم دخل رجال أنكرهم عروة ، فقال : ما هولاء ؟ قالوا : يُمسكونك ، فان الألم ربما عَزَبَ معه الصبر . قال أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسى !

قال الشيخ : فانظر أيها الضعيف الذى يريد قتل نفسه كيف صَنع عروة ، وكيف استقبل البلاء ، وكيف صبر ، وكيف احتمل . إنه انصرف بحسه إلى النفس فانبسطت روحه عليه ، وأخذ يكبر ويهلل ليبقى مع روحه وحدها ، وخرج من دنيا ظاهره إلى دنيا باطنه ، وغُمِرَتْ حواسه وأعصابه بالنور الالٓهى من معنى التكبير والتهليل ، فقطعَ القاطعُ كعبه بالسكين وهو لايلتفت ، حتى إذا بلغ العظم وَضع عليها المنشار ونشرها وعروة فى التكبير والتهليل . ثم جىء بالزيت مغلياً فى مغارف الحديد فحُسِمَ به مكانُ القطع ، فَغُشِىَ على عروةَ ساعة ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ، ولم يسمع منه فى كل هذه الآلام الماحقة أنةٌ ولا آهةٌ ، ولم يقل قبلها ولا بعدها ولا بين ذلك : « جاء ما لا صبرَ عليه ؟ »

* * *

قال المسيب : وأرْهِف بأسُ الرجلِ الضعيف وقَوى جأشه وانبعثت فيه الروحُ إلى عمر جديد ، ونشأ له اليقين من عقله الروحانىّ وعرف أن ما لا يمكن أن يدرَك ، يمكن أن يترَك

وجاء هذا العقل الروحانى فمرّ بالمنشار على اليأس الذى كان فى نفسه فقطعه ، فما راعنا إلا أن وثب الرجل قائماً يقول : الله أكبر من الدنيا ، الله أكبر من الدنيا !

ثم أكب على يد الشيخ وهو يقول : صدقت ؛ « إنْ كلُّ ذلك إلا كما ترى قبضةٌ من التراب تتكبر ، وقد نسيتْ أنه سيأتى من يكنسها » [1]

* * *

ماذا يصنع الانسان إذا غلط فى مسئلة من مسائل الدنيا إلا أن يتحرّى الصواب ويجتهد فى الرجوع اليه ويصبر على مايناله فى ذلك ؟ وماذا يصنع الانسان إذا غلطت فيه مسئلة ... ... ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

(١) سيتم القول فى الانتحار إن شاء الله فى المقال التالى

عصر الخفاء فى مصر الاسلامية

٤ ـ الحاكم بأمر الله

للأستاذ محمد عبد الله عنان

والآن ماذا نستطيع أن نقرأ فى هذا الثبت الدموى الحافل من خواص الحاكم وصفاته ؟ لقد كانت هذه الجرائم المثيرة بلاريب عنوان اجتراء مروع على الشر ، وشغف واضح بالسفك واحتقار بين للحياة البشرية ؛ ولكنها لم تكن نزعة دموية فقط ، ولم تكن بالأخص دون غاية . كان الارهاب فى نظر الحاكم وسيلة للحكم ، وكان القتل المنظم دعامة هذا الارهاب الشامل ؛ فاذا زعيم أو رجل من رجال الدولة وصل إلى مدى خطر من السلطان والنفوذ ، فان القتل أنجع وسيلة لسحقه وسحق نفوذه ؛ وإذا بدرت من فريق من الناس بادرة تذمر أو تمرد على أمر من الأوامر أو قانون من القوانين ، فان إزهاق عدد منهم يكفل عودهم إلى السكينة والخشوع . وكانت هذه السياسة الدموية تحيط عرش الحاكم بسياج منيع من الرهبة ، وتخمد الأطماع المتوثبة فى مهدها ، وتنذر الزعماء ورجال الدولة بالخضوع المطلق لهذا الفتى الجرىء . ولقد كان القتل دائماً وسيلة الطغاة الى تأييد سلطانهم ، وكان الحاكم طاغية قوى النفس والشكيمة . وقد كانت الأهواء والفورات العنيفة التى تجيش بها نفس الحاكم تمد هذه السياسة الدموية بروح من الاسراف والقسوة ، ولكنها كانت فى نظره قبل كل شىء وسيلة من وسائل الحكم ، وكان لها بلاريب أكبر الأثر فى توطيد سلطة الحاكم ، وسحق عناصر الخروج والثورة التى تتربص عادة بأمثاله الطغاة المسرفين

هذا ويفسر لنا بعض المؤرخين المسلمين إسراف الحاكم فى القتل بأنه كان تقرباً منه « لزحل وطالعه المريخ » ، وقد كان الحاكم شغوفاً بالفلك ورصد النجوم كما سنرى [1] ، ولكنا لا نستطيع أن نسيغ هذا الرأى من الوجهة التاريخية ، فليس فى

(١) هذا هو قول قزاوغلى فى مرآة الزمان (النجوم الزاهرة ص ١٧٧)